مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٥، العدد ٥٩ (صيف ٢٠٠٤)، ص ٥

الأزمة الفلسطينية الراهنة
في ضوء تطورات المشروع الصهيوني*

جوزيف سماحة **محمود سويد**

الياس صنبر **خليل هندي****

أدار الندوة وحررها: **أحمد خليفة**

أحمد خليفة: موضوع الندوة هو تفحص الأزمة الفلسطينية الراهنة، المتفاقمة بشدة في الآونة الأخيرة، انطلاقاً من:

- ما يجري حالياً من تحركات ضد السلطة الفلسطينية ورموزها في قطاع غزة والضفة الغربية؛
- خطة شارون الهادفة إلى تجزئة الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع وحصره في معازل، وإلى رسم حدود إسرائيل النهائية من خلال بناء الجدار العازل ورفع مستوى القمع والتضييق والحصار.

ثم الانتقال من خلال ذلك إلى تفحص الصراع الفلسطيني – الصهيوني في مرحلته الراهنة، وما يمكن أن تؤول إليه الأمور في المستقبل، وأيضاً ما يمكن فعله للخروج من الأزمة وإدارة الصراع على نحو أكثر جدوى وفعالية.

جوزيف سماحة: ما يجري في غزة هو محاولة لأقلمة الوضع الفلسطيني مع خطة الفصل الشارونية. وهي خطة تقوم على مبدأ جوهري هو عدم وجود شريك فلسطيني، وترتبط بها – انطلاقاً من هذا المبدأ – استهدافات أُخرى. وهنا جوهر التناقض مع خريطة الطريق، التي تقوم على افتراض وجود شريك، وعلى خطوات تبادلية ترسم مساراً إلى حين بدء التفاوض في شأن القضايا النهائية، وذلك وفق مواعيد محددة ومفتوحة. خطة الفصل، في الجوهر، تقوم على ما قيل صراحة: عندما نيأس من وجود شريك فلسطيني ينفذ معنا خريطة الطريق، سنلجأ إلى إجراءات من طرف واحد، ولن نقبل بأية صيغة من صيغ إلغاء الطابع الانفرادي لهذه الخطة، وسننفذها من طرف واحد. هذا الأمر، الذي يمكن أن يؤدي إلى نوع من انكفاء إسرائيلي ترتفع فوقه عدة

(*) عقدت الندوة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، بتاريخ ٢٠٠٤/٧/١٩.

(**) جوزيف سماحة: رئيس تحرير جريدة "السفير" (بيروت) ● محمود سويد: مدير مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت) ● الياس صنبر: رئيس تحرير مجلة *Revue d'études palestiniennes* (باريس) ● خليل هندي: أستاذ في كلية الهندسة في الجامعة الأميركية في بيروت.

علامات استفهام من زاوية ما إذا كان سيحدث فعلاً أم لا، لأن هناك بين خطة الفصل بنسختها الأولى، وبين خطة الفصل كما تطورت، أشواطاً بعيدة جداً إلى الوراء؛ إذ تحولت من خطة فصل كامل إلى خطة فصل على مراحل، إلى خطة فصل مؤجلة، كل مرحلة منها مرتبطة بتوافقات من ضمن انعدام وجود أكثرية برلمانية، أو بمحاولات تأليف حكومة جديدة في إسرائيل توافق عليها، الأمر الذي يجعل كل الاحتمالات واردة.

ثانياً، التأييد الأميركي لها، والهدايا التي أُعطيت لشارون بناء عليها، والتأييد الأوروبي، وتأييد اللجنة الرباعية، والتأييد العربي (مصر وغيرها)، كل هذا جعل منها تقريباً "اللعبة الوحيدة في المدينة" الموافق عليها، وبات الخيار: إمّا السير معها، مع كل الوهم الذي صاحبها بأنها جزء من خريطة الطريق، في حين أن الكل يعرف أنها عند شارون نقيض لجوهر خريطة الطريق، وإمّا مواجهة إمكان نشوء فراغ وفوضى، إلخ. وبالتالي صار من الضروري معالجة الوضع الفلسطيني في المرحلة الأولى بما يضمن تأقلمه مع خطة الفصل، وهنا نصل إلى الخطة المصرية.

جوهر الفكرة المصرية هو محاولة جَسْر بين خطة الفصل وخريطة الطريق؛ بمعنى أنه إذا كانت إسرائيل تقول إنه لا يوجد شريك فلسطيني يمكن مفاوضته وإقامة علاقات تبادلية معه، وإذا كان من غير الممكن إجراء حوار فلسطيني – إسرائيلي مباشر، يصبح السؤال: كيف يمكن إدارة حوار بشأن خطة الفصل، وكيف يمكن العمل على الوضع الفلسطيني وإجراء مجموعة إصلاحات في السلطة الفلسطينية بشكل يسمح بتنفيذ الخطة، ومن ثم تُستأنف المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية لأنه يكون تم بناء واقع فلسطيني جديد يجعل إسرائيل تقبل باستئناف العلاقات التبادلية والتفاوضية؟

هذا كان جوهر الخطة المصرية، وأنا لا أتحدث هنا عن دقتها أو أوهامها. جرى الحديث عن إرسال عناصر أمن مصرية إلى غزة، وعن أن تحل مصر جزئياً محل السلطة الفلسطينية في التفاوض مع إسرائيل؛ وهذا يحل مشكلة لشارون الذي لا يريد أن يتفاوض مع الفلسطينيين. كما جرى الحديث عن أن تضغط مصر على السلطة لترتيب الوضع الأمني، وهذا مطلب قديم وملح من جانب إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية والغرب.

هذه الخطة اصطدمت بعقبات. وفي رأيي أن ما نشهده اليوم هو مرحلة أُخرى من تأهيل الوضع الفلسطيني، إنما هذه المرة بقوى داخلية. ولا شك في أن قسماً مما يجري، أو من الشعارات المرفوعة اليوم، كان يجب أن يجري بإشراف المصريين وبالتوافق. لكن هذا لم يحدث لأسباب كثيرة، منها أن الإسرائيليين رفضوا عملية الجَسْر التي حاول المصريون القيام بها. وما كان يمكن أن يحدث بمبادرة مصرية يحدث اليوم بمبادرة داخلية فلسطينية ذات شقين: الشق الأول شعارات كبيرة وصحيحة

وجذابة ومشروعة جداً تتعلق بضرورة إصلاح الوضع الداخلي، إنما وراءها على الأرجح – وهذا هو الشق الثاني – الهدف السياسي للموضوع، وهو إنشاء حالة سياسية وأمنية في غزة تسمح بتلبية أحد مطالب الخطة المصرية، أو خطط أوروبية، كي يصير الوضع الفلسطيني جاهزاً لتطبيق خريطة الطريق وفق خطة فصل مفتوحة على إمكان تجدد البحث في خريطة الطريق، أو على الأقل يسلّح القوى التي تريد أن تضغط على إسرائيل لاستئنافها بالحجة التي تقول إن الفلسطينيين صاروا جاهزين، ونفذوا الشروط المترتبة عليهم. باختصار: ما يجري هو الاستناد مرة أُخرى إلى مطالب إصلاحية مشروعة وشعبية من أجل إعادة تأهيل وتكييف الوضع الفلسطيني بما يخفض سقف التوقعات الوطنية والسياسية، وكل من يشارك فيما يجري مفترض فيه أنه يعرف أن السقف المرسوم من جانب شارون والولايات المتحدة، سقف أكثر انخفاضاً مما كنا عليه سنة ٢٠٠٠ وسنة ٢٠٠١.

الياس صنبر: أعتقد أن ما يجري في غزة هو، في العمق، جزء من عملية ضم الضفة. ما قاله جوزيف عن الدور المصري وترتيب الأوضاع لإعطاء الأوروبيين، بصورة خاصة، حجة أمام الإسرائيليين فحواها أنه يوجد طرف فلسطيني يمكن أن تتفاوضوا معه صحيح، لكن في العمق ما يحدث في غزة هو قضية ضم الضفة.

الأطراف الفلسطينية تتصرف كأن ثمة دولة ستقوم في غزة. هذه الدولة، أو حلم الدولة أطلق عدة قوى تقول: لو قامت دولة من سيستلمها؟ بالمعنى الضيق للدولة، أكيد سيكون هناك شيء ما، والكل يتصرف، بشكل واع أو غير واع، وكأن الأمر سيحدث في غزة وينتهي بها. والقوى التي تؤدي لعبة السلطة، أو لعبة السيطرة على السلطة المحتمل أن تأتي، ترفع شعاري محاربة الفساد والإصلاح من أجل الحصول على شعبية لتحركاتها، وهي تتصرف كأن الانسحاب سيتحقق. لكن هذا ليس أكيداً، ولا أحد يعرف إن كان سيحدث أم لا، ومتى، وهل سيحدث بالطريقة التي نعرفها حالياً، من جانب واحد، أو بالتنسيق مع أطراف أُخرى. إنما المشكلة ليست هنا، فالجميع عندنا يتصرف كأن الانسحاب سيتحقق فعلاً.

هناك أمر يجب أن ننتبه له، وهو صمت "حماس". موقف "حماس" ذكي جداً. فهي لم تدخل المعمعة، وواضح أن عندها قناعة مطلقة بأنها يمكن أن تقطف الثمار في غزة. كل كلامها وحدة وطنية: لا تتسرعوا يا إخوان، انتبهوا – الدم الفلسطيني خط أحمر.

أمّا أبو عمار فهو، بتصرفاته، يسهّل على إسرائيل ضم الضفة، ويجرّ الوضع إلى مزيد من الخراب. أبو عمار منذ يوم رجع إلى فلسطين يتصرف مع إسرائيل تماماً مثلما كان يتصرف مع الأنظمة العربية، وهذه أكبر مشكلة عنده. خلال ٣٠ – ٤٠ عاماً الماضية عندما كانت تحدث أزمة بينه وبين أي نظام عربي، وعندما كان العنف أو الأزمة تصل إلى حد معين، كان هناك دائماً وسيط، أو طرف، يتدخل ليهدئها. "يِعلْقَ"

أبو عمار مع حسين يأتي عبد الناصر؛ "يِعْلَق" مع ليبيا تأتي سورية؛ "يِعْلَق" مع العراق تجيء سورية؛ "يِعْلَق" مع سورية يتدخل صدام. دائماً كان هناك حَكَم عائلي من داخل الأسرة العربية الواسعة يتدخل ويهدئ الأزمة. وعندما تصالح مع إسرائيل تصرف كأن الأميركيين جزء من العائلة. نظل نصعّد مع الإسرائيليين، وإذا تدهورت الأمور لا بد من أن يدخل الطرف الأميركي ليهدئها. الآن لا يوجد حل. الأميركي ليس من العائلة، ولن يتدخل لحل المشكلة.

أيضاً تصرف أبو عمار مع المجتمع في الداخل تماماً مثلما تصرف مع المجتمع في المنافي. وهذه أيضاً مشكلة كبرى. وهنا يرد السؤال: هل هو عاجز عن التصرف بشكل مختلف؟ هل هذه القيادة، في العمق، قيادة لاجئين، اجتماعياً وعلى صعيد رؤيتها للعالم، أم لا؟ قد لا تكون هذه القيادة قادرة على أن تتصرف إلاّ في إطار مفهوم المنفى، ومجتمع المنفى، واللجوء، والمخيمات. هذه البيئات كونت رؤيتها للعالم، وكانت "شاطرة" فيها. هي أساساً جاءت تعبيراً عن ذلك العالم، ولم تأت في الأساس تعبيراً عن الداخل. ولدت في المخيمات. ولدت من الطرد. هذه أيضاً مشكلة موضوعية. لا أتحدث هنا عن التصرفات المنحرفة، وعن كل هؤلاء الزعران الذين يلتفون حوله، فهذا كلنا نعرفه، وإنما أتحدث في العمق عن عجز ناجم عن التأثير البنيوي. وقد لا يكون السؤال الذي أطرحه هو سؤال السلطة، بمعنى بقاء هذه السلطة أو ذهابها أو إصلاحها، وإنما هو: هل طريقة عملها دليل على النهاية الفعلية لمنظمة التحرير، إذ إن رؤيتها لمجتمعها مختلفة تماماً عن حقيقة هذا المجتمع؟

في هذه الأزمة هناك قوى مستفيدة. دحلان "عم يلعب" بالتأكيد، لكن نحن تمكنا في الأعوام الأربعة الأخيرة من أن نعمل من كذبة إسرائيلية حقيقة. هم بدأوا في الأساس يقولون: لا يوجد طرف للتفاوض معه. في الحقيقة كان هناك طرف، لكن تصرفنا خلق وضعاً يمكن القول فيه موضوعياً إنه لم يبق هناك طرف. في الوضع الحالي لم يبق عندنا طرف، لا لأن إسرائيل معها حق، وإنما لأن طريقة إدارة أبو عمار للأمور لا تسمح لأحد بعمل شيء. ومن هنا فإن قصة عزل عرفات كانت فعالة جداً بالنسبة إلى الإسرائيليين على الرغم من كل شيء، على الرغم من الصمود، وهو صمود حقيقي، لكن عزلوه، لا عن السفر فحسب، بل عن الواقع أيضاً. ياسر عرفات اليوم لا علاقة مباشرة له بالواقع، ونحن نعرف أن عناصر الواقع تصل كلها إليه ممن يسميهم هو "كرستا"، الناس الذين هم حواليه، وأهم شيء عندهم: لا تزعجوه، ولا تقولوا شيئاً بعكس ما يفكر. سُجِن، حقيقة سُجِن. هذه العناصر كلها هي، في اعتقادي، ما يجعل شارون اليوم يتصور أنه يشهد تحقق السيناريو الذي وضعه، لكن نحن في الحقيقة نتحمل جزءاً من مسؤولية هذا التحقق.

خليل هندي: في تقديري أن مفتاح فهم ما يجري هو استكشاف عناصر الخطة

الإسرائيلية الكلية. ذلك بأن إسرائيل، مدعومة من الولايات المتحدة الأميركية (الإدارة الحالية والإدارات اللاحقة)، هي القوة الغالبة المسيطرة. وفي الوضع الإسرائيلي الراهن لم يعد الليكود يمثل اليمين المتطرف، وإنما أصبح الوسط هو المعبّر عن الحالة الإسرائيلية. لم يعد شارون المجرم الفاشي، وإنما صار محصلة السياسة والمجتمع الإسرائيليين. هكذا صارت الخطة الشارونية هي الخطة الإسرائيلية.

تقوم هذه الخطة على العمل في اتجاهات ثلاثة. الأول، هو سجن الفلسطينيين في معازل أو كانتونات، وذلك بتقسيم الضفة إلى ثلاثة أو أربعة معازل: واحد حول رام الله، وثان حول الخليل، وثالث حول نابلس، وربما رابع حول قلقيلية وطولكرم. الاتجاه الثاني هو التهجير، ولا يعني ذلك حكماً الطرد، فعندما يحشر الناس في معازل وتقطع عنهم سبل العيش يبدأون بالهجرة. والواقع أن إحدى الظواهر غير المدروسة هي الهجرة من الأراضي المحتلة إلى الخارج. إذ على الرغم من الإجراءات الاحتياطية التي يأخذها الأردن، وإلى حد ما باقي الدول العربية، فإنه يبدو أن هذه الهجرة لم تعد على هيئة جداول صغيرة، وإنما أصبحت سيلاً، وهناك خطر أن يصبح هذا السيل عارماً. أمّا الاتجاه الثالث فهو استمرار إسرائيل في السيطرة على الضفة الغربية سيطرة كاملة ناجزة. ولا ترمي خطة الانسحاب من غزة إلى شيء سوى تسهيل ذلك. والواقع أن إسرائيل تسيطر الآن على كل شيء في الضفة: الأرض والمياه والكهرباء والاتصالات والإنترنت والنقل ونقاط الدخول والتجارة الداخلية والتجارة مع العالم الخارجي. والآن يجري إتمام طريق إسرائيل الرئيسي الذي سيربط المستعمرات بالداخل الإسرائيلي، ويحكم عزل الفلسطينيين في الكانتونات. وإذا نجحت إسرائيل في تحقيق ذلك كله، ماذا سيحدث للفلسطينيين؟ تفكر إسرائيل على النحو التالي: إذا نجحنا في حشرهم وعزلهم، فليس مهماً ما يحدث داخل مناطقهم. إذا سادت الفوضى فسيجنون حصادها، وفي أية حال ستسهل الفوضى عملية التهجير. وإذا نجحنا في تطويع السلطة الفلسطينية أو سلطة بديلة منها، واستطاعت هذه أن تضمن أمننا، فلا بأس. ويمكننا أيضاً، كبديل، أن نلجأ إلى إنشاء سلطات محلية تتعاون معنا باستمرار. ولا يخرج التركيز على مسألتي عقلنة الأجهزة الأمنية والسيطرة على الأمن عن هذا النطاق.

هذا هو جوهر المشروع الإسرائيلي، الذي يبدو – لسوء حظنا نحن الفلسطينيين – أنه في طريقه إلى النجاح. الأمر الوحيد الذي يمكن أن يعرقله هو ضغط أميركي، وهذا كما هو واضح ليس موجوداً ولا وارداً، لأسباب يمكن إجمالها في سيطرة اللوبي الصهيوني على الكونغرس، وتزايد قوة اليمين المسيحي (وهذه ظاهرة تاريخية ربما استمرت عقوداً قبل أن تنحسر)، وتعقيدات الوضع الأوروبي التي تجعل أوروبا عاجزة عن اتخاذ موقف موحد كفيل بأن يثني الولايات المتحدة عن دعمها لإسرائيل اللامحدود واللامشروط.

على أن المشروع الإسرائيلي يطرح مسألة الحقوق السياسية للفلسطينيين. فإسرائيل تدرك أن العالم لن يقبل طويلاً بأن يظل الفلسطينيون محرومين من جميع حقوقهم السياسية. قبل فترة وجيزة قال شارون إن الخيار الأردني ما زال مفتوحاً. وقتها اعتبرت الصحافة أن ذلك تعليق نشاز لا يعبر عن حقيقة الموقف الإسرائيلي. أنا أعتقد العكس. فالإسرائيليون يفكرون جدياً في ترتيب يقوم على أن يمارس الفلسطينيون المحشورون في المعازل حقوقهم السياسية ضمن إطار الأردن في حالة الضفة، وضمن إطار تديره مصر في حالة قطاع غزة. وهذا سر الضغوط التي يتعرض لها الأردن وتتعرض لها مصر لحملهما على القيام بدور سياسي وأمني أكبر في الضفة والقطاع. صحيح أن الأردن ما زال يمانع حرصاً على التوازنات داخله، لكنه إذا ووجه بوضع أصبحت فيه الهجرة المتزايدة من الضفة إليه، أو حتى إمكان تزايدها، تهدد توازناته الداخلية في أية حال، فإنه قد يجد نفسه مضطراً إلى التدخل والقيام بالدور الذي يراد له تأديته.

مهما يكن من أمر، إذا وضعنا مجريات الأمور الراهنة جانباً ونظرنا من منظور تاريخي، فإنني لا أدري ما إذا كان هناك مجال للحديث، مجرد الحديث، عن تسوية، أو عن حل يقوم على دولتين. فالسؤال الكبير في هذا الصدد هو ما إذا كان في قدرة الطرفين أن يلتقيا على نقطة اتفاق. الجواب في اعتقادي: كلا. الإسرائيليون يريدون الأرض، كل الأرض، وليسوا مستعدين لاقتسامها بأي شكل يكون له معنى بالنسبة إلينا نحن الفلسطينيين. وإذا قيل إن المستعمرات يمكن تفكيكها، يجدر بالمرء أن يتذكر أن إخلاء ثلاثة آلاف مستوطن من يميت في سيناء كان بالنسبة إلى الإسرائيليين عملية صعبة معقدة، فما بالك بإخلاء ٤٥٠,٠٠٠ مستوطن يتوزعون على مستعمرات القدس وباقي الضفة، ويمارسون الابتزاز على المجتمع الإسرائيلي كله. الواقع أن الإسرائيليين غير مستعدين للتخلي عن الأرض، وقد أصبح تقاسمها مستحيلاً تقريباً. من جهة أُخرى، يصر الإسرائيليون، الذين يبدون بعض استعداد للتخلي عن الأرض، على أن ذلك يجب أن يكون ثمنه تخلينا نحن الفلسطينيين عن حق العودة، وهذا ما لسنا مستعدين للقبول به. قد يكون هناك بيننا من يبدي استعداداً للقبول به، لكن الأغلبية الساحقة تصر على التمسك بحق العودة، وتعتبره مقدساً.

بالنسبة إلى مسألة ما إذا كانت القيادة الفلسطينية قادرة على أن تتصرف بشكل مختلف، أو قادرة على الإصلاح، يمكن القول بثقة إنها غير قادرة، بل يمكن القول إن الشعب الفلسطيني ابتلي بقيادته. طبعاً قد يقول قائل إن هذا الحكم مبني على الاسترجاع التاريخي، وإنه من قبيل التذاكي بعد الحدث. ربما كان في ذلك بعض الصحة. لكن الحقيقة تبقى أن هذه القيادة كانت على الدوام مصابة بقصر النظر الاستراتيجي، وأنها لم تستطع يوماً فهم العالم، وكيف يتحرك، وكيف تتشكل علاقاته

وتتقولب وتتغير وتتطور. لقد برعت دوماً في المماحكة التكتيكية، لكنها عجزت دائماً عن القيام بتخطيط طويل الأمد. الأنكى من ذلك أنها عاملت المجتمع الفلسطيني على أنه مجتمع عشائر وأفخاذ وحمائل، فعززت هذه النزعات فيه. إنها قيادة لا تستطيع بناء مؤسسات، ناهيك عن دولة، بل إنها تعمد بنشاط وعن سابق تصميم إلى إحباط إمكانات قيام مؤسسات، ظناً منها، بعقليتها المتقادمة، أنها بذلك تصون سلطتها.

أضف إلى ذلك أنه نشأت خلال الفترة الماضية طبقة سياسية فلسطينية همها الإثراء الشخصي، وهي مرتبطة ارتباطات وثيقة برأسماليين إسرائيليين تؤدي دور الوسيط لهم بأشكال شتى.

الأخطر من ذلك كله أن القيادة جعلت من الفساد والإفساد سياسة واعية تطبق بمنهجية. والفساد إذا بدأ، وخصوصاً إذا كانت السلطة مصدره، عمّ واستشرى ونخر المجتمع بأكمله. فكأن قيادتنا، بانتهاجها الفساد سياسةً، تحرم المجتمع كل مقومات المقاومة والممانعة. هنا لا بد من القول بصراحة إن الرئيس عرفات مسؤول شخصياً. أولاً لأنه الرئيس، وثانياً لأنه فيما يبدو يشجع نزعات الفساد ويتستر عليها، ويستخدم الإفساد وسيلة سيطرة وأداة حكم. غير أن المأساة هي أن ما يسمى الحرس الجديد، الذي تروجه بعض الدوائر، غارق هو الآخر في الفساد حتى قمة الرأس.

أحمد خليفة: عندما يقول خليل إن مشروع شارون، كما وصفه، في طريقه إلى النجاح، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يعرقله هو ضغط أميركي، وهذا لن يحدث، فقد يكون معنى ذلك أنه يعتقد أن المقاومة الفلسطينية، مهما تكن، لن يكون في قدرتها أن تحبطه، وأن ٣ أو ٤ ملايين فلسطيني محشورين في معازل في أوضاع معيشية واجتماعية وسياسية بائسة يمكن، أو يُحتمل، في حال نجاح مشروع شارون، أن يستسلموا لقدرهم ويقبلوا بما يفرض عليهم. وعندما يضيف، في سياق يؤكد النجاحات الصهيونية والإخفاقات الفلسطينية، أنه لا يرى في المدى القصير حلاً يقوم على دولتين، ولا يرى بالمنظور التاريخي حلاً على الإطلاق، فقد يكون الإيحاء هو أن المشروع الصهيوني في طريقه إلى انتصار نهائي، والشعب الفلسطيني في طريقه إلى هزيمة نهائية.

هل الأمر كذلك حقاً؟ سؤال موجه إلى الجميع.

الياس صنبر: هناك هزائم فلسطينية كثيرة، وما وصفه خليل نحن موافقون على جزء كبير منه. لكن بالنسبة إلى المدى الطويل، إلى المدى التاريخي، هناك تفصيل كبير جداً، وحاسم، لا بد من الإشارة إليه. على المستوى التاريخي لا أعتقد أن هناك هزيمة. لماذا؟ في رأيي، جوهر القصة تاريخياً، وهنا أتحدث عن مئة عام إلى الوراء، كان التغييب، وأعني به تغييب الشعب الفلسطيني. فمن أجل أن ينجح المشروع الصهيوني، بالطريقة التي وصفتها، كان يلزم أن نصبح غائبين إلى الأبد، وكان يلزم أن يغيب اسمنا واسم أرضنا. وأتصور أنه مع كل انتقاداتنا للحركة الوطنية الفلسطينية في المنفى بعد سنة

١٩٤٨ يجب أن نعترف بأنها حققت إنقاذ الاسم، وهذا إنجاز هائل. التغييب لم يعد وارداً. أعني لم نعد شعباً غير موجود. قد يقال اليوم إننا شعب إرهابي، شعب يحدث اضطرابات، لكنه موجود. يتساءل البعض عن سر قوة ياسر عرفات، على الرغم من كل المآخذ عليه، وعلى الرغم من العزلة المفروضة عليه. أعتقد أن السر كامن في هذا الموضوع، أعني أن شرعيته عند الناس مستمدة من أنه أرجع الاسم إلى مكانه. الجملة التي بقينا نسمعها ٣٠ – ٤٠ عاماً هي: "إيش الفلسطينيين، إشي مش موجود"، هذا لم يعد وارداً، وهذا إنجاز كبير من منظور تاريخي. وطن كان غائباً ورجع وثبت وقعد على خشبة المسرح. "عم يلعب غلط"، يمثل بشكل غير لائق، الجمهور غير مسرور من أدائه، ممكن، لكنه موجود وحاضر على الخشبة.

محمود سويد:

مشروع شارون تمليه صهيونية واقعية
يمنحها الدعم الأميركي فرصة لا تفوَّت،
ومستوى المواجهة الفلسطينية له
ليس في مستوى خطورته

محمود سويد: تختلط الأمور فيما يجري في غزة بين القوى التي ترشح نفسها لدور رئيسي في حكم القطاع بعد الانسحاب الإسرائيلي، وبين المواطنين والجماعات الذين ينظرون إلى الفساد على أنه بلغ شأواً يستفز القدرة على الاحتمال، وهم بالتالي مستعدون لمجاراة كل من ينزل إلى الشارع ويرفع شعار محاربة الفساد والدعوة إلى تصحيح أوضاع مختلف مؤسسات السلطة.

والإصلاح، في الحقيقة، شرط من شروط مواجهة مشروع شارون، الذي أزعم أن المواجهة الفلسطينية له ليست في مستوى خطورته.

خطة الفصل والجدار هما العنوان البارز لمشروع شارون، وهما محصلة المعارك التي خاضها طوال ثلاثة أعوام من حكمه لإنهاء الانتفاضة، وفشله في ذلك. هذا من جهة. من جهة أُخرى فإن خطة الفصل هي الرد الإسرائيلي على موجة التشاؤم الديموغرافي التي اجتاحت المجتمع الإسرائيلي، بعد أن أجمعت تقديرات خبرائه الديموغرافيين على أن عدد الفلسطينيين سيفوق عدد الإسرائيليين اليهود في فلسطين الانتداب بعد أقل من عقدين من الزمن.

يقترن هذا التقدير (فشل إنهاء الانتفاضة، والقلق من مخاطر التكاثر الفلسطيني) بطموح شارون إلى أن يؤدي دوراً مهماً في تاريخ الصهيونية. فالفرصة التي يمنحها له عهد الرئيس الأميركي جورج بوش وفريقه الليكودي ثمينة ولا تفوَّت، وتتيح له أن يضم نصف الضفة الغربية إلى حدود إسرائيل – الخط الأخضر سنة ١٩٤٩، محولاً

بقية مدن الضفة وبلداتها إلى معازل محاصرة بالمستعمرات والحواجز العسكرية، وينتشر فيها الفقر والبطالة وانسداد فرص العمل للشباب؛ أي أن الحياة فيها تصبح شبه مستحيلة، مع بابين مفتوحين لهجرة بطيئة وقسرية: باب قطاع غزة وامتداده سيناء كوطن للفلسطينيين إذا شاؤوا، وباب إلى الأردن لإحياء الخيار الأردني إذا سنحت الفرصة.

مشروع شارون تمليه صهيونية واقعية تأخذ في الاعتبار أوضاعاً إسرائيلية وفلسطينية ودولية، تاركة المجال مفتوحاً لإنجازات تحققها أجيال صهيونية لاحقة.

جوزيف سماحة: قول محمود إن شارون اليوم يمثل الصهيونية الواقعية هو تعبير دقيق. شارون اليوم يشبه أكثر ما يشبه بن – غوريون في التاريخ الصهيوني. إن تحوله إلى وسط إسرائيلي لم يحدث لأنه تغير، وإنما لأن المجتمع الإسرائيلي بكامله انزاح أكثر إلى اليمين، الأمر الذي جعله يبدو وسطياً. أمّا مشروعه، الذي تأسس على فشل مفاوضات كامب ديفيد، وعلى كلام كلينتون وكلام براك، فقد كان هناك في البداية قابلية لمقاومته، لكن هذه القابلية تراجعت مع ١١ أيلول/سبتمبر ضمن انعطافة في السياسة الأميركية جعلت من هذا المشروع واقعاً. لقد بدأ إدراجه بقدر من الإرادة، إنما أيضاً بقدر من المعرفة الدقيقة بوجهة سير العالم، وبما حدث في العالم الجديد. ففي لحظة حدوث الانزياح الإسرائيلي نحو اليمين، الذي جعل شارون وسطياً، كنا نشهد في الولايات المتحدة تحولاً يتجاوز تعميق الصلة بإسرائيل عن طريق دعمها ودعم أمنها. فلأول مرة، في الثلاثين أو الأربعين عاماً الأخيرة، ينشأ في الولايات المتحدة نوع من اتجاه سياسي، ونوع من صعود أشخاص إلى مواقع نفوذ وتأثير أدخلوا من خلالها إلى السياسة الأميركية حماية التوسعية الصهيونية وحماية المشروع بنسخة جديدة مطورة ظلّت مكبوتة إلى أن أظهرتها موافقة بوش، بوعوده لشارون، على إسقاط حق العودة، وعلى الحق في التوسع. ما جرى بعد ١١ أيلول/سبتمبر، بصورة خاصة، من تحوّل في الولايات المتحدة، أدى دوراً في جعل ما كان يبدو أن فيه نسبة عالية من الإرادوية يبدو اليوم أن فيه نسبة عالية من الواقعية ومن الدراسة الدقيقة لموازين القوى. يضاف إلى هذا صعود لتيار معين في الولايات المتحدة وتلاقيه مع تيار معين في إسرائيل غيّر العلاقة التاريخية التي نعرفها بين إسرائيل والولايات المتحدة، حيث كانت العلاقة النموذجية قائمة بين الحزب الديمقراطي في أميركا وحزب العمال في إسرائيل، وباتت اليوم بين أقصى اليمين الأميركي وأقصى اليمين الإسرائيلي، وهذا شيء جديد في العلاقات الأميركية – الإسرائيلية.

في الوقت الذي كانت تجري هذه الاندفاعة الجديدة، كنا – نحن العرب – نشهد تراجعاً هائلاً في الوضع العربي العام، مفتوحاً على عدة احتمالات في العراق ومصر والسعودية، إلخ، قد تقود إلى حرب أهلية هنا، وإلى انهيار هناك. إذاً، في ظل الوضع

العربي المفتوح على مجهول قد يكون مستقبله أسوأ من حاضره، وفي ظل تحالف قوي بين إسرائيل والولايات المتحدة تلتزم فيه الإدارة الأميركية الحالية، وأي إدارة جديدة، لا بما قاله كلينتون في آخر عهده، وإنما بما قاله بوش قبل فترة بسيطة، نجد الوضع الفلسطيني يتجه نحو مزيد من التدهور بدلاً من أن يجري ترتيبه بما يمتص بعض الآثار السلبية لموازين القوى في المنطقة وفي العالم. إن التدخل الفلسطيني، بدلاً من أن يؤدي إلى تصحيح ميزان القوى، أدى إلى تعميق الخلل، وإلى جعل الوضع الفلسطيني أسوأ، سواء بعمل عسكري، أحياناً أهوج، قائم على وهم أن الحل قريب، وعلى أن قليلاً من الضغط على إسرائيل سيرغمها على الانسحاب، أو نتيجة التصرف وكأن التسوية جاهزة، وكل ما يلزم هو أن نكون نحن أيضاً جاهزين. وهنا، بالمناسبة، يجب أن يقال إن التجربة اللبنانية تركت آثاراً سلبية على صعيد النضال الفلسطيني، وهناك من يتحمل مسؤولية الإيهام بأنه بقليل من الجهد يمكن أن تطردوا الإسرائيليين مثلما طردناهم نحن، وهذه مسؤولية كبيرة يتحملها النموذج اللبناني بفرضه، أو بمحاولة فرضه، على الفلسطينيين صيغة غير التي اكتشفوها في الانتفاضة الأولى. إذاً، هناك خطآن في الساحة الفلسطينية قائمان على وهم مشترك: العمل المسلح الأهوج بالطريقة والوتيرة اللتين تم بهما، والرهان على حل سياسي سريع وأنه بقليل من إصلاح للوضع الفلسطيني نأخذ حقوقنا. وكلا الخطأين قائم على إنكار حقيقة السياسة الشارونية، حقيقة وجود خطة في قيد التنفيذ، وشعور إسرائيل بوجود موازين قوى في مصلحتها. بهذا المعنى يكون المشترك بين أبو مازن وبين "حماس" والجهاد الإسلامي هو انعدام النظرة التاريخية التي تشير إلى أنه ما من مخرج غير إعادة وضع الصراع في أفق تاريخي.

محمود سويد: تحدث الياس عن تغييب الشعب الفلسطيني، وقال إن حركة التحرر الوطني الفلسطيني ساعدت في إعادة وجود أو حضور هذا الشعب. أعتقد أن المنحى الحالي الإسرائيلي هو العودة إلى التغييب. مشروع شارون يسير في هذا الاتجاه، أي العودة إلى تغييب الفلسطينيين كشعب وكدولة تعبّر عن وجود شعب. هناك فارق كبير بين الأزمة الوطنية الفلسطينية والأزمة القائمة في إسرائيل، نوعاً وطبيعةً. الأزمة الوطنية الفلسطينية جزء من الأزمة الوطنية العربية، وإعادة الصوغ الجارية حالياً، والتي يحاول الأميركيون من خلالها إعادة صوغ المنطقة بشكل يندرج فيه الجانب الفلسطيني على نحو يساعد إسرائيل مرة أُخرى على تغييب الشعب الفلسطيني؛ إعادة الصوغ هذه تستدعي السؤال: هل القضية الفلسطينية، كقضية وطنية، هي جزء لا يتجزأ من مستقبل الوضع العربي؟ وهل يمكن للطرف الفلسطيني أن يتقدم بمشروعه الوطني بينما المشروع القومي العربي آخذ في التقهقر؟ ما هي المعادلة، وما هي الصيغة؟

على المستوى الإسرائيلي، اليمين المتطرف ليس، في العمق، ضد مشروع غزة.

الخلاف بينه وبين شارون ينحصر في أنه يقول: نضغط على الفلسطينيين كي يستسلموا، ونأخذ الضفة وضمنها القدس بشروط صلح لا بعملية تنطوي على إمكان استمرار العمل المسلح والمقاومة. هل نوقف القتال ولدينا فرصة الاستمرار حتى استسلامهم؟ هذا هو، في رأيي، كل الخلاف. إذ يفضل شارون في المقابل امتصاص المشكلة على مراحل. أي أن الخلاف هو بشأن شروط نجاح المشروع لا بشأن المشروع نفسه. كذلك، إذا قامت حكومة وحدة وطنية فإن حزب العمل سينضم إلى برنامج شارون. يبقى أن علينا الانتظار حتى أواخر السنة الحالية لنرى ما إذا كان المشروع الصهيوني – الأميركي سيستمر باستمرار بوش وشارون معاً؟ ذلك بأنه إذا انتخب رئيس أميركي جديد فإن عناصر جديدة ستدخل على مسار التطورات، وستدخل تلاوين مختلفة على الصراع في المرحلة المقبلة.

الياس صنبر: أوافق على قول محمود إن شارون يريد أن يحقق مجدداً التغييب، لكن هناك فارقاً بين هذا التغييب والتغييب الأول. التغييب الأول كان قسرياً، بينما سياسة شارون الحالية تسعى لتغييب يريدك أن تقول: سأفتح الباب وأرحل. وهذا يمثل الفارق بين اللاجئ والمهاجر. المهاجر يخرج لأنه محشور، ولا يستطيع تدبير أمور معيشته، وأوضاعه صعبة. لكن إذا أراد أن يبقى يستطيع أن يبقى، وإذا أراد أن يرجع يستطيع أن يرجع، بينما اللاجئ مقهور. شارون يلعب بالترانسفير، لكن بالصيغة الجديدة هذه.

نقطة ثانية: بالنسبة إلى المستقبل، في الحقيقة لا يوجد عندي جواب بشأنه، لكن السؤال الذي يرد عندما نتحدث عن المدى الاستراتيجي هو: ماذا حققت إسرائيل في العمق؟ إسرائيل رجعت الآن تفكر بعقلية الغيتو. وإذا أردنا أن نختصر القصة كلها فإنه واضح جداً أن هذه الجماعة اليهودية بكل تركيباتها، من اليمين إلى اليسار، تلقائياً في الأساس، أو من بعد تدريبها إسرائيلياً ودمجها في المجتمع الإسرائيلي، لم تخرج بعد من الغيتو، ومن فكرة الجدار الحديدي التي نادى بها جابوتنسكي. الجدار له دور خارجي ودور داخلي، ودوره الداخلي لا يقل أهمية عن دوره تجاه الخارج. ومن الواضح أن الإسرائيليين، وهذا أيضاً جزء من مكونات رؤيتهم لمكانتهم جغرافياً واستراتيجياً وفلسفياً، قرروا إغلاق الباب والعيش خلفه. صحيح أنهم في فترة أوسلو فتحوه قليلاً، لكنهم بسرعة خافوا فرجعوا وأغلقوه. وليس من باب المصادفة أن أكثر من نسف الاتفاقات كان الحزب الذي وقّعها، أي حزب العمل، وأن أكثر من وسّع الاستيطان هو هذا الحزب؛ وهذا يدلنا على أنه كان عاجزاً عن أن يفتح الباب تماماً، أو كان غير راغب في ذلك. من الواضح أن لدى إسرائيل أبعد من مشكلة حق العودة. حسناً، إذا تحقق الإغلاق سيكون هناك غيتو أقوى من كل محيطه، مثل قلعة، وإذا تسبب المقيمون خارجه بمتاعب سيخرج الجيش ويضربهم ويرجع، ثم ماذا؟ يبقى السؤال: ما هو إمكان أن يعيش الغيتو في محيط مضطرب ومعاد له؟

جوزيف سماحة: بالنسبة إلى أوسلو والجدار الحديدي. أوسلو لم تكن خروجاً من فكرة الجدار الحديدي. أوسلو كانت عند بيرس محاولة لاستثمار المساحة التي أوجدها الجدار، بمعنى: نجحنا في كسر إرادة المقاومة الفلسطينية والعربية فلماذا لا ننجز التسوية؟ اليمين الإسرائيلي كان رأيه: نحن من القوة بحيث نستطيع أن نبني الجدار في مواقع متقدمة فنأخذ أكثر، ونكسر رؤوسهم على جدار متقدم، وهذا ما قد يكون اليوم في قيد النجاح. وفي العمق يستطيع اليمين الإسرائيلي، إذا نجح، أن يقول إنه كان معنا حق بمعارضة أوسلو، لأننا قدمنا الجدار إلى الأمام، وفرضنا شروطاً جديدة على العرب، ورجعنا نحن ومعنا الولايات المتحدة. وأثبتت حرب العراق والتطورات والانهيار العربي أنه ممكن تكسير رؤوس العرب على حائط متقدم.

خليل هندي: لديّ تعليق بسيط على فكرة الغيتو. القول إن الجدار يجعل إسرائيل حبيسة غيتو مفيد رمزياً ودعاوياً. لكنه قد يصبح مضراً في حقل السياسة العملية إذا جعلنا نركن إلى الاطمئنان إلى أن إسرائيل مأزومة هي الأُخرى. الحقيقة أن إسرائيل رتبت أوضاعها بحيث تكون جزءاً من أوروبا. وبالمناسبة، هناك مفارقة في هذا. فالنخبة الإسرائيلية تعتبر نفسها أوروبية، لكنها في حياتها تعتمد في كل شيء – من الخبز حتى المدفع – على الولايات المتحدة. في كل حال، الفكرة الأساسية هي أن تعزل إسرائيل نفسها عن العرب، وتتواصل مع الغرب. بهذا المعنى فإن الإسرائيليين ليسوا في غيتو، لأنهم منفتحون على الحضارة وعلى العصر والحداثة، ويريدون أن يتركوا مسافة بينهم وبين "البرابرة العرب".

الياس صنبر: حسناً، قلعة موصولة بالغرب، لكنها تبقى قلعة. فهل يمكن أن تدوم في محيط مضطرب جداً؟

خليل هندي:

فرصتنا الوحيدة كفلسطينيين هي التفكير
على المدى الطويل في كيفية تحويل الحالة الفلسطينية
من النموذج الجزائري إلى النموذج الجنوب إفريقي

خليل هندي: لا أعرف عن أي مدى تاريخي نتحدث. إذا كنا نتحدث عن خمسين أو مئة عام، فإن القلعة الإسرائيلية من المعقول جداً أن تدوم، إذ لديها من أسباب القوة ما يمكنها من ذلك. كما أن الانكفاء العربي وانشغال العرب بمشكلاتهم الداخلية قد يستمران أمداً طويلاً. طبعاً، التاريخ مملوء بالمفاجآت، وقد تنقلب الأمور من حيث لا ندري. لكن استقراء الواقع الراهن يؤدي بنا إلى أنه يمكن لإسرائيل أن تدير ظهرها للمنطقة مدة طويلة، وأن تظل تمد نفسها بأسباب الحياة والقوة والمنعة عن طريق علاقتها بالخارج الغربي. السؤال في ذهني هو: كيف يمكن أن نضع العصي في دولاب

المشروع الإسرائيلي على المدى القصير، وكيف يمكن أن نطور على المدى الطويل قوى وديناميات تستطيع إفشاله؟

أحمد خليفة: ألاحظ أن الحديث يجري عن المشروع الصهيوني وكأنه يمضي من نجاح إلى نجاح، ولا يواجه عقبات أو مشكلات مستعصية، وإن كان هناك مشكلات أو عقبات، ففي قدرته التغلب عليها من دون التنازل عن أهدافه الأساسية. فلماذا، إذاً، يبدو المجتمع الإسرائيلي مأزوماً ومكتئباً؟ ولماذا تبدو الحياة السياسية مضطربة؟ وماذا يفعل الجيش الإسرائيلي منذ أربعة أعوام في الضفة والقطاع؟ لقد حقق المشروع الصهيوني نجاحات كبيرة، لكنه أيضاً مني بإخفاقات كبيرة، وتواجهه مشكلات وعقبات لا يستهان بها، ليس أقلها – كما قال الياس – فشله في تغييب الشعب الفلسطيني أو تحطيم إرادته ومقاومته، وليس أقلها اضطرار الإسرائيليين إلى العيش خلف جدار أسمنتي كي يشعروا بالأمان. العيش خلف جدار "حديدي" أو أسمنتي هو عيش في غيتو، وقد يخفف من وطأته كونه موصولاً بالغرب ومنفتحاً عليه، لكنه يبقى غيتو، وتبقى الحياة فيه ثقيلة الوطأة وغير طبيعية. هذه أمور يجب إدخالها في الحسبان.

جوزيف سماحة: يجب إدخالها، لكن في سياقها. هناك سياقان مختلفان: سياق إسرائيلي، وسياق فلسطيني. ثمة فارق كبير بين نجاح رافقته مشكلات، وبين فشل أدى إلى كوارث؛ بين مشكلات جسم ينمو ويتطور، وبين مشكلات جسم يحتضر. منذ خمسين أو ستين عاماً والسياقان مستمران بصفتهما أزمة نمو، وأزمة فشل. وإذا فشلنا في رؤية ذلك سنقع في نوع من التفاؤل يمكن أن يوصلنا إلى القول إن إسرائيل مقبلة على الانفجار الكبير لحظة إنجاز الانتصار الكبير. هناك كمية من التفاؤل في قطاعات فلسطينية تمثله وتروّجه، تجعل بعضهم، منير شفيق مثلاً، يرى في كل انتصار تحرزه إسرائيل كمية هائلة من المشكلات تستدعي الإشفاق عليها، في حين لا يرى أين صرنا نحن من برامجها.

أحمد خليفة: تخوفك مشروع جداً، ويجب التنبيه إليه والتحذير منه. لكن يجب عدم تجاهل نقاط الضعف الإسرائيلية، لأن هذا هو مدخلك إلى استمرار المقاومة، وإلى استمرار الممانعة تجاه فرض الحلول عليك. الشعب الفلسطيني ليس جسماً في طريق الاحتضار، ولو كان الأمر كذلك لكان معناه أن قضيتنا ميؤوس منها ولا أمل فيها. إذا لم تكن هذه قناعتك أرجو أن توضح لماذا هي ليست ميؤوساً منها. يبدو لي أن هناك خلطاً في الذهن لدى التحليل بين الشعب الفلسطيني والسلطة الحاكمة.

جوزيف سماحة: من الضروري جداً، كي لا تكون قضيتنا ميؤوساً منها، التركيز على انتقاد فكرة إسرائيل المأزومة. هذه نقطة. وإلاّ تظل الحركة السياسية الفلسطينية تدور في حلقة مفرغة. بعد ١٥ – ٢٠ عاماً تأتي "حماس" والجهاد الإسلامي وتكرران حرفياً

تفاؤل الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية، وتستعملان اللغة نفسها.

أحمد خليفة: لست مضطراً إلى أن تفعل مثلهما، أو، في المقابل، أن تذهب إلى موقف أبو مازن: موازين القوى ضدنا؛ لا نستطيع أن نفعل شيئاً؛ فلنأخذ ما يمكن أخذه...

الياس صنبر: موقف أبو مازن ليس هكذا، إنما العكس. وأنا أعرفه جيداً. كان كل منطقه: يا إخوان، لا تخربوها؛ هم، في أية حال، "فارطين". أبو مازن كان تماماً في السياق الذي تحدث عنه جوزيف. تقول له: الاستيطان يتعزز، يقول لك: لا تهتم، فهو "سيفرط". هذا كان موقف أبو مازن، وهذا كان خطأه.

القول إن لدى إسرائيل مشكلات لا يعني أن إسرائيل في أزمة وما علينا إلاّ أن نقعد وننتظر وستنهار تلقائياً. لكن المشكلة "كمفهوم"، إذا أدخلناها في تحليلنا، تفيدنا كثيراً. أعتقد أننا عندما نتحدث عن الاستراتيجيا الإسرائيلية الحالية نغفل أمراً مهماً. إسرائيل عندها استراتيجيا، غير أن كل سياساتها سياسات مراحل قصيرة. ليس صحيحاً أن لديها سياسات للمدى الطويل، وهذا يفسر لماذا كل انتصار يحل مشكلة يثير في الوقت نفسه أزمة. لا توجد في الاستراتيجيا الإسرائيلية رؤية للمدى البعيد. ولو كان هناك رؤية للمدى البعيد لكانت ربما توصلت إلى أن هذه التركيبة كلها آخرتها خراب. استراتيجيتها مثل استراتيجيا الشخص المحشور: الآن ليس وقت تحليل كل شيء، أخرجني من هذه وبعد ذلك أخرجك من تلك، وبين الاثنتين سأحاول أن أغيّر. النقطة الثانية فيما يتعلق باستراتيجيا شارون هي النقطة التي قالها خليل، ولا أحد يتناولها بالأرقام وبواقعها الحقيقي. فكرة شارون التي لم تتغير منذ البداية هي فكرة الترانسفير. المشكلة أن الترانسفير إمّا تنفذه بطرد، تغييب، إلخ، وأمّا تنفذه بهجرة. اليوم الطرد ليس وارداً لأسباب محلية ودولية وجوارية، ولا ننسى أن الحدود التي يمكن تنفيذ الطرد عبرها، أي حدود مصر والأردن، هي حدود البلدين الوحيدين اللذين عقدا معاهدة سلام مع إسرائيل. هذا casus belli، سبب لحرب، ولا يمكن أن تفعله إسرائيل. من هنا فكرة غزة كمصب، وقد تكون وهماً، إذ إنها لا تستطيع تحمل سكان إضافيين، لكن شارون يشتغل على المدى القصير. سيوجد الكانتونات، إنما هذا ليس هدفاً استراتيجياً. إنه سجن موقت. الكانتون يجب أن يخدم الغرض منه أيضاً في النهاية. هذا ما في ذهنهم. وما في ذهنهم هو كيف يحولون اللاجئ إلى مهاجر. وهذا إذا قبل بأن يتخلى عن حق العودة فعندها يصير مهاجراً مثل أي مهاجر آخر. هاتان النقطتان يجب أن ندخلهما في التحليل.

خليل هندي: في الحقيقة، رأيي قريب كثيراً من رأي جوزيف. في تقديري، هناك مشكلة في نظرة الثقافة السياسية الفلسطينية إلى إسرائيل. هناك اتجاهات تبدو كأنها ثابتة في التفكير الفلسطيني. أولاً، إسرائيل دائماً مأزومة داخلياً، يكفي أن ننتظر فستتفتت

من تلقاء ذاتها، وكأنها ليست كياناً ديناميكياً يتغير ويتطور. ثانياً، أي نجاح إسرائيلي هو نجاح مأزوم وتعبير عن الأزمة الإسرائيلية، وهذا يعطينا نوعاً من الثقة بالنفس وبالمستقبل وبالتاريخ، لكن هذه ثقة خادعة ومقعدة. ثالثاً، قضيتنا عادلة، لذلك لن تخسر. وفي الحقيقة، التاريخ مملوء بركام القضايا العادلة. هناك حاجة إلى تصحيح نظرتنا إلى إسرائيل. هذا التصحيح، بداية، يفرض علينا الاعتراف بأن مشروع إسرائيل المفصلي قد يكون رغماً عن التاريخ وقد يكون مضاداً للوجهة التاريخية، لكنه مع ذلك فعْل إرادة نجح نجاحاً باهراً. فقد جلب الملايين من أرجاء العالم، وصهرها في مجتمع واحد حارب به أمة كبرى، وفرض عليها إرادته. هذا نجاح يجب أن نأخذه في الاعتبار، لا لننبهر به، وإنما لنعرف كيف نتعامل معه.

قد يصح القول إن إسرائيل مأزومة على المدى التاريخي الطويل، لكن المدى التاريخي الطويل يمكن أن يكون طويلاً جداً. ويجدر الالتفات إلى أن هناك في الأيديولوجيا الإسرائيلية سمة واضحة تماماً يشترك فيها اليمين واليسار، وهي الإرادوية – "نحن نعرف أن ما نفعله هو تقريباً ضد الطبيعة، ومع ذلك سنعمله ونقولب علاقاتنا بالعالم بحيث نتمكن من فعله." وكل نجاح تحققه إسرائيل يخلق دينامية جديدة يمكن أن تجعل الوضع طبيعياً أكثر. هذا هو منحى التفكير الإسرائيلي. "صحيح مثلاً أنه ليس طبيعياً أن نحكم مليوناً ونصف مليون فلسطيني في الضفة، لكن إذا رتبنا الاحتلال بذكاء سيخلق هذا الوضع دينامية جديدة قد يصير الوضع بفعلها طبيعياً." هكذا، عندما نقول إن أفعال الإسرائيليين تبدو قصيرة الأمد، يجب أن نضيف أنها جزء من استراتيجيا طويلة المدى تهدف إلى خلق سلسلة من الوقائع تنطوي على دينامية يمكن أن تجعل الوضع طبيعياً.

هذا ينقلنا إلى مسألة مهمة هي مسألة النظر دائماً إلى إسرائيل والفلسطينيين في نطاق أوسع هو النطاق العربي. في رأيي، كان هناك في تاريخ إسرائيل دائماً تجاذب داخلي بشأن العلاقة بالعرب. الذي انتصر عملياً هو الجدار، الجدار الحديدي، أي الفكرة التي أتى بها جابوتنسكي في البداية وعارضتها حركة العمل، لكن كانت هي من طبقها عملياً. ولا تزال فكرة الجدار تطبق حتى الآن. الفترة الوحيدة التي بدا فيها شذوذ عن القاعدة هي فترة أوسلو، عندما أصبح بيرس يحلم بشرق أوسط جديد، وسعى رابين لعلاقات جوار سلمية مع الفلسطينيين والعرب. هذا كله تحطم مع تحطم أوسلو، وعاد المجتمع الإسرائيلي إجمالاً إلى فكرة الجدار الحديدي، ولسان حاله يقول: "علاقتنا ليست مع العرب؛ بيننا وبينهم جدار حديدي. صحيح أن هناك علاقة سلام بيننا وبين الأردن ومصر، لكن هذا لا يعني أن نصبح جزءاً من الشرق الأوسط. إننا لا نريد أن نكون جزءاً من الشرق الأوسط. وكي ينجح ذلك يجب أن يترسخ الانكفاء العربي، أي يظل العرب يقولون فلسطين قضيتنا الأولى، لكن من دون أن يقترن قولهم بأي فعل." وهذا

ما يحدث إلى حد كبير. ما يجري في المنطقة هو عملياً نوع من الانكفاء العربي عن القضية الفلسطينية. لا تزال عواطف وأفكار وقلوب العرب، في مجملهم، مع الفلسطينيين، لكن لكل بلد عربي مشكلاته وأزماته التي تشغله. هذا هو الوضع الذي تسعى له إسرائيل، وتريده، وهو يتحقق. من ناحية، هي جزء من العالم الغربي؛ ومن ناحية ثانية، "البرابرة العرب" منكفئون عنها؛ ومن ناحية ثالثة، علاقاتها الدولية تسمح لها بأن تظل مسيطرة على "أرض إسرائيل" كلها إلى مدى غير منظور. وهي تأمل بأن تخلق على المدى الطويل ديناميات تجعل هذا الوضع طبيعياً.

هذا، في رأيي، هو النجاح الذي حققته الاستراتيجيا الإسرائيلية. فرصتنا الوحيدة كفلسطينيين هي التفكير على المدى التاريخي الطويل في كيفية تحويل الحالة الفلسطينية من النموذج الجزائري إلى النموذج الجنوب إفريقي. وللمفارقة، أستعير هذا التعبير من إيهود أولمرت. فقد صرح مرة، ولا أعرف من أين جاء بمعلوماته، أن هناك ناشطين فلسطينيين يحاولون إقناع القيادة الفلسطينية بتبني النموذج الجنوب إفريقي بدل النموذج الجزائري؛ فبدل أن يكون الصراع ضد الاحتلال يصير صراعاً عنوانه لكل امرئ صوت. هذا الصراع على صعوبته أنظف كثيراً وأجدى لنا كثيراً. أمّا كيف يمكن تحقيق ذلك فلا أعرف. إنه يتطلب تجنيد قوى لا تزال غير موجودة. إنه يهدف إلى حل لا يريده أي من الفلسطينيين، ولا يريده أي من الإسرائيليين. فالفلسطيني إذا خُيِّر لا يحب أن يشاركه الإسرائيلي في نابلس ورام الله، والإسرائيلي لا يحب أن يشاركه الفلسطيني في تل أبيب وصفد.

أحمد خليفة: ما تقترحه إذاً هو العودة إلى حل الدولة الديمقراطية في كل فلسطين، والسعي له بطريقة سلمية.

خليل هندي: نعم. دولة ديمقراطية، وربما ثنائية القومية. قد يوفر ذلك مخرجاً، لكنه ينطوي على أن النضال الفلسطيني كما تصورناه فترة طويلة مُني بهزيمة لا بد من الاعتراف بها، والانطلاق من الاعتراف بهذه الهزيمة إلى استخلاص نتائجها واستخلاص طريقة للتعامل مع هذه النتائج.

أحمد خليفة: قلت سابقاً إن كل ما يمكن أن نفعله حالياً هو وضع العصي في دولاب المشروع الإسرائيلي، وسؤالي هو: كيف نفعل ذلك؟

خليل هندي: هذا سؤال تحديد المهمات الأساسية للحركة الوطنية الفلسطينية في المرحلة الراهنة. في رأيي، المهمة الأساسية الآن هي كيف نعيد الاحتلال الإسرائيلي إلى وضعه الحقيقي كاحتلال، أولاً، على أرض الواقع، وثانياً، في أذهان العالم ككل. الضفة الغربية وقطاع غزة هما أراض محتلة، على الرغم من وجود ما يسمى السلطة الوطنية الفلسطينية، أو ربما بمساعدة وجود السلطة الفلسطينية. لكن **المشكلة** هي أن إسرائيل نجحت في جعل هذا الاحتلال قليل التكلفة إلى أبعد الحدود على الرغم من كل

العمليات العسكرية. قليل التكلفة لأن إسرائيل لا تتحمل تبعاته إطلاقاً. الأوروبيون عملياً هم من يمول الناس ويبقيهم على حافة العيش؛ قليل التكلفة لأنه في الذهن العالمي لا توجد مشكلة: يوجد شعبان متخاصمان، وليس شعباً يعاني الاحتلال ويقاومه. يجب أن يكون الهدف الأساسي للحركة الوطنية الفلسطينية الآن إعادة الأمور إلى نصابها، بمعنى جعل تكاليف الاحتلال باهظة مادياً ومعنوياً. من هذا المنطلق أرى أن المطالبة بذهاب السلطة الفلسطينية أمر مشروع، لأن وجود السلطة الفلسطينية هو، بمعنى من المعاني، ما يمكّن إسرائيل من أن تستمر في الحفاظ على احتلال قليل التكاليف. السؤال الكبير هو: هل ينطوي حل السلطة الفلسطينية على خطر من حيث أنه يمكن أن يساعد في تغييب الشعب الفلسطيني؟ في تقديري، كلا، لأن وجود شعب فلسطيني له طموحات، ويستحق دولة، أصبح أمراً راسخاً في الذهن العالمي. **المشكلة الثانية** هي أنه قد لا يعود هناك ما يجمع فلسطينيي الداخل والخارج، ويعبر عن الشخصية الفلسطينية. لكن من الممكن حل هذه المشكلة بأن يجري بعث الحياة في منظمة التحرير الفلسطينية. هناك **مشكلة ثالثة** يثيرها رجال السلطة، وهي أن قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني تعيش على حساب السلطة. هذا يذكّر المرء بعقلية الفاكهاني: السلطة هي التي تطعم الناس، وليس الناس هم الذين يمدون السلطة بالموارد عن طريق الضرائب وعوائد الخزينة. تلخيصاً: المطالبة بذهاب السلطة مشروعة، ومخاطر هذا الذهاب في رأيي ليست جسيمة.

أحمد خليفة: وما العمل إذا ذهبت السلطة، وشكلت إسرائيل سلطة بديلة مكونة من عملاء محليين واعترفت بها الدول الأوروبية وظلت تمدها بالمساعدات؟

خليل هندي: يناضل الشعب الفلسطيني ضد السلطة البديلة.

جوزيف سماحة: دعني أسألك سؤالاً: هل يمكن القول اليوم إن هناك مرحلة تاريخية في نضال الشعب الفلسطيني، بمؤسساته وشعاراته، قد انتهت؟

خليل هندي: لم أطرح على نفسي هذا السؤال. لم أبدأ بهذه النتيجة وأستخلص منها ما أشرت إليه، لكن كل ما طرحتُه حتى الآن يؤدي منطقياً إلى هذه النتيجة.

جوزيف سماحة: سؤال صعب. إذا افترضنا أنه صحيح أن مرحلة انتهت، فأنت مضطر إلى أن تفكر بأفق تاريخي جديد. عملياً ستواجه عقبتين: **أولاً**، عقبة أن هذا النضال أثمر وجود السلطة، فهل إذا قلت إن هذه المرحلة انتهت تعني أن السلطة انتهت أيضاً. ما أريد قوله هو أن الصراع أفرز واقعاً يجعل المرحلة اللاحقة صعبة بسبب وجود السلطة. ماذا نفعل بها؟ أنت تقول: نحل السلطة ونرجّع إلى الاحتلال كل الأعباء، ونبدأ من جديد. المسألة ليست بهذه السهولة. **ثانياً**، الصراع أيضاً أفرز صعود قوى سياسية معينة، إن لم يكن إلى موقع الهيمنة فعلى الأقل إلى موقع المشاركة الفعلية في العمل، قوى ذات خطاب لا ينسجم مع أي واحد من الحلول التي تطرحها. لدينا اليوم خطاب راديكالي

يقطع مع العالم. الخطاب الراديكالي الفلسطيني كان ذات مرة موصولاً بالقوى التقدمية في العالم، أمّا اليوم فهو موصول بقوى في أفغانستان وفي غيرها، ومقطوع الصلة بمزاج العالم. إذاً هناك أولاً عقبة السلطة؛ وهناك ثانياً عقبة بأي خطاب نتوجه إلى العالم. أبو العلاء حوّل ذات مرة مسألة حل السلطة والمطالبة بدولة ثنائية القومية إلى تهديد، في حين أن المطالبة بدولة ثنائية القومية تتطلب تأييد قوى إسرائيلية أكثر كثيراً من القوى المؤيدة لحل قائم على طلاق شعبين وانفكاك أحدهما عن الآخر. هناك تحولات حدثت في العالم جعلت القضية الفلسطينية حاضرة في المزاج التقدمي الديمقراطي الإنساني في العالم. وبدلاً من تطوير خطاب يضمن استمرار وتوسيع وتعميق تأييد القوى التقدمية المؤيدة لك، نسمع خطاباً يقطع الصلة بهذه القوى، وبالتأكيد يقطع أي صلة بإمكان إيجاد رديف إسرائيلي.

الياس صنبر:

لا يوجد في التاريخ سلطة غابت
إلاّ وكان بديلها موجوداً، وهذه السلطة
لن تذهب إذا لم يكن هناك بديل منها

الياس صنبر: في هذا السياق يجب الانتباه أيضاً إلى أن المجتمع الفلسطيني أفرز نوعاً من القيادة، نوعاً من القوى السياسية، وأفرز مجتمعاً مختلفاً عن مجتمع سنة ١٩٦٤ [سنة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية]، سواء في أماكن اللجوء، أو في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧، أو في الجليل الفلسطيني المحتل سنة ١٩٤٨. في هذه الأماكن كلها هناك شيء جديد لم يكن عندنا في الخمسينات والستينات، وهو المجتمع المدني. لدينا الآن قوى حقيقية، لدينا مجتمع مدني، لدينا حيوية قد لا تكون أقوى أو أفضل من الحيوية السابقة، لكن فيها شيء مختلف.

محمود سويد: أخشى أن يعلق في الأذهان، نتيجة ما قيل، أن الشعب الفلسطيني جالس ينتظر انهيار إسرائيل من الداخل. وهذا غير صحيح. فنضال الشعب الفلسطيني وصموده على أرضه – على الرغم من الغياب العربي شبه الكامل – هما ما يحول دون تحقيق المشروع الصهيوني: التهجير والتشتيت... فالتغييب. لكن واقع الحال الآن أن هناك طرفاً قادراً على أن يخطط، عنده مشروع، ويعرف إلى أين يريد أن يصل. وإذا لم يقدر على الوصول إلى هدفه حالياً يعرف أين يجب أن يتوقف كي يستأنف بعد ذلك. الطرف الآخر (الفلسطيني)، في المقابل، ليس لديه مشروع سوى الصمود في وجه المشروع الصهيوني، وهو غير قادر على وضع برنامج وطني، وإلاّ ما معنى أن محاولات القوى في الساحة الفلسطينية لوضع برنامج موحد تفشل كلها؟ أعتقد أن هذه هي الخطورة الكبرى؛ وضع فلسطيني غير قادر على استخدام كل طاقات الشعب

في الداخل والخارج، في مواجهة الطرف الواحد الأميركي – الإسرائيلي الذي يخطط لإعادة صوغ المنطقة. والسؤال هو: هل أن دينامية الشعب الفلسطيني قادرة على تطوير النضال ليحبط مشروع شارون، وفي الوقت نفسه يشكل رافعة للوضع العربي للمساعدة في إخراجه من حالة العجز والتقهقر، أم أن الواقع الفلسطيني مشدود إلى الاندفاع في اتجاه التماثل مع الوضع العربي نتيجة تماثل البنية ومستوى التطور؟

الياس صنبر: أعتقد أن النقاش المتعلق بحل السلطة المطروح في الساحة الفلسطينية، والذي تطرق إليه خليل، نظري إلى حد كبير. لا يوجد في التاريخ حالة غاب فيها شيء من دون أن يكون صار له بديل، بشكل ظاهر أو غير ظاهر. فكرة أن نلغي هذه السلطة ونرى ما يحدث ممكن أن تحدث في الدماغ، لكن عملياً لا توجد أي سلطة في الكون وفي التاريخ غابت إلاّ وكان بديلها موجوداً، ربما أحياناً غير واضح أو غير ظاهر، لكنه موجود. أنا لا أحاول تقويم نوعية البديل، لكن كلامنا نظري عندما نقول: نحل السلطة، ثم نرى ما يحدث. هذه السلطة لن تذهب إذا لم يكن هناك بديل منها. والسؤال الذي يجب طرحه هو: هل هناك بديل واضح؟

خليل هندي: صحيح أنه لا يختفي شيء إلاّ إذا وجد بديل منه. لكن كي يوجد البديل لا بد من أن يفكر الناس في البدائل. ما أطرحه هو أن نجد سبلاً لخلق البديل. لست متأكداً مما أقول، فالوضع محتبس ومغلق إلى حد بعيد، لكن ما أفكر فيه هو ضرورة جعل الاحتلال باهظ التكاليف، بدل أن يظل كما الآن احتلالاً "دو لوكس".

جوزيف سماحة: يوجد بديل جاهز هو الاحتلال. والسؤال هو: كيف يمكن جعله مكلفاً عن غير طريق المقاومة العسكرية.

خليل هندي: معك حق، عن غير طريق المقاومة العسكرية. في فلسطين مجتمع نابض بالحياة، وقد طور الناس مجتمعاً مدنياً ما زال صلباً (وإن كانت السلطة حاولت، بقصر نظر لا يصدق، أن تضعفه لتلحقه بها). ما أدعو إليه هو أن نضع الاحتلال وجهاً لوجه في مواجهة المجتمع الفلسطيني، وأن نبتدع طرقاً للنضال تجعل الوضع واضحاً تماماً أمام العالم كله: هناك احتلال، وهناك فصل عنصري، وهناك نضال من أجل تحرر الفرد والإنسان والوطن، بدلاً من الوضع الملتبس الحالي. المفارقة هي أنه ربما كان هذا، أو التهديد به، أقصر الطرق لبعث الحياة في مشروع الدولتين؛ بأي معنى؟ بمعنى أنه إذا استجمع الخيار الذي أتحدث عنه زخماً، فإنه قد يضع المجتمع الإسرائيلي أمام لحظة الحقيقة، وقد يفتح إمكانات فرز في المجتمع الإسرائيلي. الإسرائيليون الآن ليسوا مجبرين على التفكير في المستقبل البعيد. لكن وضعاً من النوع الذي أنادي بخلقه قد يجبرهم على ذلك. وقد تنشأ تيارات في إسرائيل تقول: نفضل أن نكون دولة يهودية، فلننته من الاحتلال والاستيطان الذي يبتز المجتمع ويخربه. قد تكون هذه واحدة من النتائج التي تنشأ عن وضع كالذي أنادي بأن نتحرك في اتجاهه. في المقابل، قد

يستمر الاحتلال فترة طويلة. عندئذ تصبح المسألة مسألة نضال ضد التمييز العنصري، نضال قد يستغرق مدة طويلة قبل أن ينتهي وضع يكون فيه عدد هائل من السكان ضمن الحيز الواقع ما بين نهر الأردن والبحر، محروماً من الحقوق المدنية والانتخابية. قد يكون هذا هو الحل التاريخي.

في أية حال، ربما يستدعي الخروج من المأزق الذي يجد الشعب الفلسطيني نفسه فيه الآن، التفكير في أمور قد تبدو مجنونة نوعاً ما، من قبيل المناداة بذهاب السلطة. أنا لا أفهم لماذا لا يطرح الموضوع حتى على شكل مناشدة للرئيس عرفات أن يقف ويقول: "جرّبنا أوسلو وحاولنا التوصل إلى حل يقوم على دولتين وعلى تقاسم الأرض بيننا وبين الإسرائيليين؛ لم ننجح، إنهم لا يريدون قسمة الأرض. لقد فشل المشروع كله." قد تكون هذه أكبر خدمة يؤديها الرئيس عرفات للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة. هذا طبعاً يختلف عن المناداة باستقالة الرئيس عرفات والإبقاء على السلطة؛ فتلك على الأغلب تهدف إلى إزالة عقبة من أمام مشروع السيطرة الإسرائيلية.

محمود سويد: الوضع الجديد يجب أن يخرج من رحم الوضع القائم. لماذا تصطنع وضعاً وتركبه على الواقع؟ أعتقد أن القوى الموجودة حالياً في المجتمع الفلسطيني، والقوى والدول على مستوى العالم، تسلم كلها بحل الدولتين. القوى الموجودة في المجتمع الفلسطيني حالياً مقتنعة بهذا، وتعمل على هذا الأساس، وبالتالي لا يمكن أن تقول: هذا مخطط بديل، وعلى القوى أن تغير اتجاهها وتحول نضالها إلى استعادة الاحتلال بشكل كامل. إذا كان لهذا الأمر أن يحدث فسيحدث بتطور طبيعي. حل الدولتين سيبقى مطروحاً على القوى الموجودة في الساحة الفلسطينية، والموضوعان المطروحان حالياً، وبكل الإلحاح، هما إصلاح وضع السلطة من جهة، واتفاق القوى، من جهة أُخرى، على برنامج عمل وطني واحد وأساليب نضالية واحدة في ضوء دراسة المرحلة السابقة منذ بداية الانتفاضة الثانية حتى الآن، وما أنتجت من إخفاقات أو نجاحات، وعلى أساس من ذلك تطوير البرنامج الوطني ووسائل النضال. أعتقد أن هذا هو الأفق الذي يمكن أن تتحرك في اتجاهه القضية في الداخل، وخصوصاً أن العسكرة حالت دون توظيف كامل طاقات الشعب الفلسطيني في البرنامج المرحلي الراهن: دولة فلسطينية في كل الضفة والقطاع، عاصمتها القدس الشرقية. وأعني طاقات وإمكانات الداخل والخارج الفلسطيني. هذا على الرغم من أن المضي قدماً في تنفيذ مشروع شارون: بناء الجدار في وسط الضفة، وعزل القدس عن عمقها الفلسطيني، وتحويل بقية الضفة إلى معازل محاصرة، ورفض حق اللاجئين في العودة، سيؤدي – إذا ما استمر الوضع الفلسطيني على ما هو عليه – إلى اضمحلال مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة، وانتقال الوضع برمته إلى حالة الدولة الواحدة على كامل التراب الفلسطيني، وهو أمر يجمع الإسرائيليون على رفضه.

أحمد خليفة: هل تتعامل السلطة مع مشروع الانسحاب الإسرائيلي من غزة مباشرة أو بالوساطة، أم تظل بعيدة عنه؟ هذا موضوع مطروح بإلحاح أيضاً، وأود أن أعرف رأيك فيه.

محمود سويد: استلام السلطة لقطاع غزة بعد الانسحاب الإسرائيلي يرتبط بمشروع الإصلاح الذي يجب أن يكون متعدد الأبعاد: إصلاح المؤسسات بما في ذلك استقلال القضاء، واستئصال الفساد المستشري، وتفعيل أجهزة المراقبة وعلى رأسها المجلس التشريعي، إلخ. هذا بُعد. وهناك بُعد آخر هو تشكيل القيادة الوطنية الواحدة، والاتفاق على البرنامج الوطني الواحد، وعلى أساليب النضال التي تخدم هذا البرنامج في كل مرحلة من مراحل تطور الصراع. وثمة بُعد ثالث هو تحرك فلسطينيي الشتات بإمكاناتهم الهائلة لتنظيم مساهماتهم الفكرية والسياسية والإعلامية والمالية في خدمة البرنامج الوطني الواحد. أمّا البُعد الرابع فهو استنهاض الشعوب العربية، وتنظيم مساهمتها في الصراع، وتنظيم العلاقة بالقوى العالمية المؤيدة للقضية الفلسطينية.

هذا ما يفترض أن يكون المنظور الفلسطيني لمسألة قطاع غزة. أمّا ما يجري اليوم فيخشى أن يصب في مصلحة مشروع شارون الذي يريد أن يصل إلى دفع الفلسطينيين إلى بناء وطنهم في القطاع (غزة أولاً وأخيراً) وضم الضفة إلى إسرائيل، ساعياً في البدء لإشاعة الفوضى في القطاع وإثارة التقاتل بين الفلسطينيين، إذا أمكن، ثم محاولة استدراج الجانب المصري وحصر ما هو مطلوب منه في سد ثغرات أمنية تفيد أمن إسرائيل وتقضي على المقاومة.

الياس صنبر: هناك ثلاث نقاط أرغب في التعليق عليها، وسأحاول ألاّ يكون كلامي نظرياً.

النقطة الأولى: قضية الإصلاح. التركيز في الإصلاح يجب ألاّ يكون على قضايا الاختلاس والناحية المالية أو حتى الأخلاقية فقط. الإصلاح يعني أيضاً إعادة تقويم أشكال النضال، وإعطاء زخم جديد لمسألة متابعة النضال. لا يجوز أن يقال إنه ما دامت مرحلة قد انتهت فإن هذا يستتبع أن يتوقف النضال لحظة ليعود فيمشي. يجب متابعة النضال مع تقويم حقيقي لكل المراحل التي مررنا بها، بإيجابياتها وسلبياتها، إعادة تنظيم، إعادة هيكلة، ليس مهماً التسمية، لكن المهم ألاّ يوقف النضال، وهذه مسألة حيوية. وعلى الرغم من كل شيء، ومهما قلنا عن الوضع العربي المتردي، فإنه إذا وقف النضال انتهينا. هناك نوع من الدينامية للحركة، ولا يمكن أن يكون هناك لحظة جمود، ولو من منطلق إيجابي: "توقفنا لنفكر". وفي أية حال، المجتمع لن يتوقف عن النضال، ولن يستجيب لأية مطالب بإيقافه. إذا قيل له: توَقَّفْ لن يستجيب. منذ مئة عام لم يتوقف.

النقطة الثانية: من الضـــروري كســـر اتجاه مغلوط فيه كلفنا كثيراً ولم يعبَّر عنه بصورة واضحة، لكنه كان موجوداً، وكان هناك مدافعون عنه، وهو أنه بمجرد أن دخل جزء من اللجوء إلى الأرض صارت هناك قناعة بأن نقطة الثقل الأساسية هي الداخل، وصـــار هناك اســـتخفاف بوزن عنصـــر الخارج وأهميته. عنصـــر الخارج هو الأغلبية الديموغرافية للشـــعب الفلســـطيني، وتبعثُر شـــتاته في الخارج يمكن أن يكون عنصـــر ضعف وعنصر قوة أيضاً لأن هذا وُجد وسط الأمة العربية كلها. هو أيضاً، من ناحية أُخرى، العقدة الأساسية في الصراع، إنه الأساس. وفي نهاية المطاف، مسألة الترانسفير عقدتها الأساسية في الخارج لا في الداخل، وعندما تكون في الداخل فهي في مخيمات اللاجئين. أعتقد أنه مهم جداً أن يخرجوا الخارج من الثلاجة التي وضـــعوه فيها بعدما بدأوا المفاوضات بحجة أنهم مشغولون بالأساس، وعندما يُرسى الأساس يجيء دور الملاحق، التي هي اللجوء والمخيمات. هذه ليســـت ملاحق، وهم لم يدركوا أنهم بذلك فقدوا عنصراً أساسياً للضغط على إسرائيل، لأن الهاجس الإسرائيلي من قضية العودة وقضية اللاجئين أكبر كثيراً من هاجس الإسرائيليين حتى من الانتفاضة، على الرغم من كل ما يقال. وهذا أمر نختبره دائماً – إفتح كل الموضوعات التي ترغب في فتحها، الموضوع الوحيد الذي يفقد الإسرائيليين صوابهم هو قضية العودة، لأن فيها قضية شرعية إسرائيل. هذه ليست مسألة تاريخية فقط. أعتقد أن من الحيوي أن تعود القضية الفلسطينية فتتقدم بكل التجمعات السكانية الفلسطينية وليس فقط بالتجمعات المقيمة على أرض الداخل.

أحمد خليفة: أفترض أنك لا تطلب من الداخل فقط أن يعيد الاعتبار والأهمية إلى الخارج، بل تطلب أيضاً من الموجودين في الخارج أن يتحركوا لفرض أنفسهم.

الياس صنبر: طبعاً. هناك شيء إيجابي جداً حدث في الفترة التي تلت سنة ١٩٤٨. لمّا الوطن تفكك غاب الداخل، الاسم اختفى. صرنا شقفاً شقفاً في الأمة العربية. الشيء الأســـاســـي الذي فعلته الحركة الوطنية الفلســـطينية في هذه الفترة هو إعادة الربط، وبإعادة الربط خلقت أرضاً (territory)، وليس فقط علاقات تنظيمية، أرضاً من نوع خاص جداً غير مادي. صار هناك شيء اسمه أرض فلسطين، مكون من روابط تربط فئات فلسطين، لكن في الجغرافيا لا تعني شيئاً. وهذا الربط هو الذي أعطى الزخم، هو الذي أرجع الممثل إلى خشـــبة المســـرح. لكن بمجرد أن دخلت فئة من عندنا الأرض الفلسطينية، من بعد مفاوضات، اعتقدت أن المسألة انتهت، ومن بقي في الخارج لم يعد حتى نافعاً، بينما لا يزال هو الأســـاس. أنا لا أدعو إلى أن نقلب الآية – نســـينا الخارج فلنرجع إليه – لكن إلى أن تتقدم الأطراف كلها معاً، أن تكون كل أعضاء الجسم شغّالة.

أخيراً، المنطق نفســـه ينطبق على الأمة العربية. الفلســـطينيون حوّلوا الأمة العربية بالتدريج إلى قوى مســـاندة فقط، ولم يعد هناك فارق بين الأخ العربي والمســـاند

الفرنسي أو الإيطالي أو الإسباني، غير أنه يتكلم بالعربية، إنما التعامل معه يتم بالطريقة نفسها تماماً. هذا أيضاً كان تخلياً مريعاً، وكان هناك لعبة إسرائيلية وقع فيها كثير من القيادات الفلسطينية. كان هناك شرط كي ينفتح الباب الإسرائيلي: صِيروا أكثر فلسطينية وأقل عروبة، وإذا صرتم أقل عروبة وأكثر فلسطينية ينفتح الباب. وكان هذا طبعاً وهماً. وللأسف سمعنا من أخذ يقول: بشطارتنا وشطارة اليهود نحكم الأمة.

هذا كان كارثة حقيقية. وإذا لم يتغير الأمر فلن تأتي المساندة العربية، ولا التضامن العربي، أقصد من الشعوب لا من الأنظمة؛ فالأنظمة لا فائدة منها.

أحمد خليفة: في سياق التحليلات والملاحظات والنقاش أُبديت تصورات جزئية كثيرة لما يمكن فعله من أجل الخروج من المأزق الحالي. لكن يبقى هناك حاجة إلى الإجابة بشكل مركز وجامع عن السؤال الملح الكبير: ما العمل؟

جوزيف سماحة:

نحن، في المدى المنظور، أمام إسرائيل
قوية وغير راغبة في تسوية معقولة،
لكن ليس محتوماً أن نقبل المعروض
بواقعية مبالغ فيها

جوزيف سماحة: ما العمل؟ أولاً يجب البدء بتشخيص اللحظة الراهنة، أين نحن اليوم؟ وهذا جهد فكري ونظري وسياسي كبير يتعين على الفلسطينيين والأمة العربية والنخبة الصديقة أن تشارك فيه جميعها. هذا يمكن أن يقودك إلى وضع خطة. مطلوب أيضاً تعريف دقيق للخطة المقابلة، وتكتيكاتها، للمشروع الشاروني، وكم هو مدعوم أميركياً. قلنا إن هدف الخطة الشارونية هو التبديد السياسي للشعب الفلسطيني، والحؤول دون نشوء كيان فلسطيني قابل للحياة والتطور؛ وبهذا المعنى الانفصال عن غزة هو أحد تكتيكات هذه الخطة. إذا تعرّت الخطة الشارونية بصفتها كذلك، يمكن رؤية أين يقع موضوع غزة، ولا يعود ممكناً الحديث عن الموضوع بصفته مدخلاً إلى تحرير باقي الأرض الفلسطينية، لأن هذا ليس جزءاً من الخطة ولا هو القصد منها. في المقابل، لا تستطيع أن تتعفف عن التعامل مع الانسحاب إذا صار أمراً واقعاً ومفروغاً منه ولعبة سياسية. إذا كنت تعرف الخطة المقابلة وتكتيكاتها فإنك تضمن أن تتعامل مع هذه التكتيكات بما لا يجعلك تضيع عن هدفك الاستراتيجي فتدخل لعبة عنوانها غزة أولاً وأخيراً، و"نعمل جمهورية بغزة والباقي يروح."

أيضاً هناك ضرورة للحديث عن مسألة تغيب عن قطاع واسع من الأداة النضالية الفلسطينية، وهي التدقيق في موازين القوى. هذا عملياً نادراً ما نجده. استنتاجاً مما

قاله خليل، دائماً عندنا شعور بأن التسوية يجب أن تفيض فيضاً عن حقنا، وطغيان شعورنا بالعدالة يغيّب بالمطلق شيئاً واقعياً: السياسة فيها نفعية، والسياسة مربوطة بموازين قوى، والسياسة فيها شطارة، والسياسة فيها "زعبرة"، والسياسة فيها ماذا يمكن أن نأخذ الآن وماذا لا يمكن أن نحصل عليه حالياً، وإذا طلبناه نخسر الأقل الممكن الحصول عليه. نحن في العمق، في الجوهر، نظل نستهجن ما يحدث، ونعتبر أن التسوية ستفيض فيضاً عن عدالة القضية، وهذا تخريف حان الأوان لأن نخرج منه. بناء عليه، يمكن القول بسهولة اليوم إن الصراع قائم منذ مئة عام، ويمكن أن يستمر أيضاً عشرات الأعوام. كيف أتعامل معه في سياق تاريخي مديد؟ في الأفق المنظور نحن أمام إسرائيل قوية وغير راغبة في تسوية فيها الحد الأدنى من المعقولية. ليس محتوماً أن أقبل المعروض بواقعية مبالغ فيها، لكن يجب ألاّ أتوهم أن التسوية قريبة فلأرتب وضعي بما ينسجم معها، أو أن أتوهم أن بضع سيارات مفخخة يمكن أن ترغم "اليهود الجبناء" على أن يتركوا الأرض المحتلة، مثلما يخمّن البعض. المطلوب هو مواجهة الوضع بنفس مديد، وإذا كانت منظمة التحرير عمرها أربعون عاماً فقد يكون أمامها أربعون عاماً أُخرى. وعندما تضع نفسك في هذا السياق التاريخي فأنت مضطر إلى أن تعرّف وضعك الملتبس. اليوم نحن لا نعرف ما هو وضعنا.

إذا أخذنا، مثلاً، ما يجري في غزة: هل هو انشقاق ضمن حركة تحرر مصدره خلاف بشأن سياسات معينة، أم هو محاولة انقلابية على سلطة؟ الأمر ليس واضحاً تماماً. قد لا تتخلى عن مكتسبات موجودة إذا استطعت، لكن يجب أن تعود فتعرّف نفسك بصفتك حركة تحرر، بصفتك شعباً واقعاً تحت الاحتلال يريد أن يتحرر من الاحتلال. أين توجد سلطة – لها دور؛ أين يمكن اتّباع أشكال أُخرى نضالية، تتبعها.

بالنسبة إلى قضايا الداخل والخارج، لا بد من إحياء منظمة التحرير كأداة صلة بين الفلسطينيين في الداخل والفلسطينيين في الخارج، وكأداة صلة وحيدة ممكنة، مع وضع عربي غير مستعد لأن يكون عنصراً مساعداً للنضال الفلسطيني. إحياء منظمة التحرير، بعد إصلاحها وتوسيعها وتفعيلها، مسألة ضرورية فلسطينياً لأن المنظمة هي مكان الحوار الوحيد الممكن أن يجري بين الفلسطينيين أنفسهم، ومع العرب الذين ما زال الموضوع يعنيهم ويروا لهم مصلحة في مساندة الفلسطينيين. هذه المصلحة تأكدت بعد ما جرى في العراق. وها نحن نرى الفرنسيين يساندون القضية الفلسطينية لأنهم ضمناً يردون بذلك عن أنفسهم غائلة أن تربح إسرائيل والولايات المتحدة، بما يعنيه ذلك من تأثيرات في أوضاعهم وفي الإدارة الأميركية للعالم، فكم بالأحرى أن يجدد العرب اكتشاف مصلحة فعلية لهم في منع الشعب الفلسطيني من الانهيار لأن وراء ذلك سيتدفق نوع من السيطرة على المنطقة يمس المصالح العربية في الصميم. التضامن العشائري مع الإخوة الفلسطينيين حدوده مساندة لفظية ودفع تبرعات، أمّا

التضامن القائم على إدراك المصلحة في عدم انهيار السد الفلسطيني بوجه إسرائيل، من لبنان إلى سورية إلى مصر والأردن، فيمكن أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك كثيراً. وتجديد اكتشاف المصلحة بدعم صمود الشعب الفلسطيني هو مهمة تستطيع أن تقوم بها بدرجة رئيسية منظمة التحرير.

بالنسبة إلى الإصلاح، بغض النظر عمن يرفع شعار الإصلاح وعن الدوافع، سواء كان الكلام حقاً يراد به باطل أو حقاً يراد به حق، فإن توحيد الأجهزة الأمنية ضروري، ومكافحة الفساد ضرورية، وإذا كنت تريد المقاومة فمن الواجب فتح ورشة إصلاحية رهيبة في الساحة الفلسطينية، في الداخل وفي الخارج.

وفي الأجواء السائدة يمكن أن يقول المرء إن لا ضرورة لإسقاط ورقة البعد العسكري بالمقاومة، إنما هناك ضرورة ملحة لضبطه. بمجرد أن تضع صراعك في سياق تاريخي وزمني مديد تستطيع أن تخضع العمل العسكري لمقتضيات الحالة وموازين القوى. الإيرلنديون يكتفون بالقيام بعملية عسكرية كل ستة أشهر مرة ليذكروا العالم بوجودهم وقضيتهم، إنما ذلك يتطلب ضبطاً وحرصاً وترشيداً هائلاً.

هذا كله يؤمن، على الأقل، شروطاً تتيح للعنصر الذاتي الفلسطيني أن يحاول تعويض الخلل في موازين القوى الموضوعي. أمّا بالنسبة إلى ما يتبقى، ماذا سيفعل العرب بأنفسهم، وماذا سيحدث في العراق، وما إذا كان الفلسطينيون سيستطيعون انتزاع حقوق أساسية لهم في هذه المرحلة، فهذا بحث آخر. لكن هذا أعقد وأثقل جداً من أن يستطيع الفلسطينيون وحدهم أخذه على عاتقهم. إنه يتطلب جواً عربياً آخر.

خليل هندي: أتفق مع ما جاء به الإخوان إلى حد كبير. سأحاول فقط أن ألخص شيئاً مما قيل. "ما العمل؟" سؤال كبير جداً. لا نستطيع نحن "المثقفين المستقلين" المقيمين في الخارج أن نجيب عنه، بل لا يستطيع ذلك غير القوى الفاعلة في المجتمع الفلسطيني ككل. إنما من مهمتنا أن نطرح الأسئلة، أو أن نشير إلى الأسئلة التي يجب أن تجد القوى الفلسطينية الفاعلة إجابات عنها. من هذا المنطلق الأسئلة الأساسية، في رأيي، هي ما يلي. أولاً، هل حل الدولتين لا يزال حلاً ممكناً؟ ثانياً، ماذا عن مستقبل السلطة الفلسطينية؟ هل هناك مصلحة للشعب الفلسطيني في استمرار السلطة الفلسطينية، أم أن مصلحته تقضي بإيجاد قيادة أُخرى؟ ربما كانت السلطة الفلسطينية تقف عقبة أمام إعادة إحياء منظمة التحرير الفلسطينية، التي هي ضرورة واقعية وملحة. وإذا رأى الناس أن من مصلحتهم استمرار السلطة الفلسطينية يصبح السؤال: كيف نحول دون تحوّل هذه السلطة فعلياً إلى أحد أجهزة الاحتلال، لأن هذا خطر واقعي وحقيقي؟ السؤال الثالث، وهو مهم جداً: كيف نعيد اللحمة بين الداخل والخارج الفلسطيني؟ قد يمر الحل هنا أيضاً عبر إحياء منظمة التحرير الفلسطينية، لا بقيادتها الحالية التي أثبتت أنها قيادة مزرية. ثم هناك مسألة جعل القضية الفلسطينية قضية عربية مرة

أُخرى، لا على أساس التعاطف الوطني وإنما على أساس مصلحة المنطقة ومصلحة الأمة العربية، كما أشار جوزيف. كل هذه الأسئلة تطرح نفسها في سياق السؤال الكبير: ما العمل؟ أمّا تفصيلات "ما العمل؟" بالتحديد، أي وضع برنامج، فتلك مهمة القوى الموجودة في الداخل. وفي رأيي ما زال السؤال الأساسي المطروح حالياً هو كيفية إعادة المواجهة بين المجتمع الفلسطيني في الخارج والداخل وبين الاحتلال، لأن لا مناص من الاعتراف بأن هذه المواجهة أصبحت ملتبسة جداً، إذ تقوم بها بالنيابة عن الفلسطينيين سلطة فلسطينية مهترئة تعمد إلى تجييش عدد كثير من الأوهام فيما يخص علاقتها بإسرائيل، أو قوى متهورة علاقتها بالسياسة أشبه بعلاقة المرء بربه، لأن فيها كثيراً من الروحانية وليس فيها شيء من العقلانية، بل إنها لا تمت إلى السياسة بصلة. وكما قلنا يبدو أن القضية أطول كثيراً مما كنا نتوقع، والنفس الطويل ضروري.

أحمد خليفة: شكراً لكم. خلاصة ما استمعنا إليه عندما وصلتم في النهاية إلى السؤال الكبير: ما العمل؟ هي أنكم لم تفقدوا الأمل باستمرار النضال الفلسطيني، وبأنه يستطيع أن يحقق نتائج في نهاية المطاف.

جوزيف سماحة: تشاؤم العقل، وتفاؤل الإرادة.

أحمد خليفة: لا، ليس الأمر كذلك. هناك حقائق على أرض الواقع يجدر بالتحليل العقلاني أن يأخذها في الاعتبار. إذ على الرغم من كل قلة الكفاءة وكل الفساد والأخطاء في إدارة السلطة للمعركة، فإن الشعب الفلسطيني لا يزال صامداً في غزة، وصامداً في الضفة، ويقاوم. ووجود الجيش الإسرائيلي في الضفة وغزة، واضطراره إلى التوغلات والاقتحامات المتتالية، دليل على ذلك، وكثيرون من المسؤولين الأمنيين الكبار قالوا، وما زالوا يكررون، إن حل المشكلة مع الفلسطينيين لا يمكن أن يكون عسكرياً فقط، وإن من الضروري التوصل إلى حل سياسي؛ وهذا أمر لا تخفى دلالته.

بالنسبة إلى السؤال: هل من المصلحة استمرار السلطة أم لا؟ في رأيي أن ما يمكّن الشعب الفلسطيني من الاستمرار في المقاومة، على الرغم من كل الضيق والعنت اللذين يلاقيهما، هو وجود السلطة في الداخل. إذا انهارت السلطة، أو جرى حلها، يمكن أن تنشأ حالة فوضى، ويمكن أن تتوقف المقاومة، ويمكن أن ننزلق إلى فترة ضياع طويلة.

أيضاً شعار الدولتين لا بد من أن نواصل طرحه للاعتبارات الكثيرة التي ذكرها محمود سويد، وليس من الحكمة التخلي عنه.

في رأيي هناك مبالغة فيما يتعلق بإنجازات إسرائيل، ومبالغة في التقليل من خطورة المشكلات التي تواجهها. لقد حققت إسرائيل إنجازات كبرى، لكن ما لم تتوصل إلى حل سياسي مع الفلسطينيين فستبقى مأزومة، والسبب هو ما ذُكر من أنها لم

تستطع تغييب الشعب الفلسطيني. وما لم يستطيعوا تغييب الشعب الفلسطيني فسنظل قابعين في وجوههم، وسنظل مشكلة كبيرة تهدد مشروعهم من أساسه.

الأزمة السياسية الحالية في إسرائيل حقيقية، وهي استمرار، أو تجدد، لأزمة تزعزع استقرار الحكم في إسرائيل منذ أكثر من عشرة أعوام. فعندما لا يكمل أي كنيست أو حكومة في عقد التسعينات من القرن الماضي ولايتهما القانونية، وعندما يتعاقب على رئاسة الحكومة خلال عشرة أعوام فقط ستة رؤساء مختلفين، وعندما يتم اغتيال رئيس حكومة مثل رابين بماضيه العسكري وإنجازاته الباهرة، وعندما يكرر القادة الأمنيون الكبار على مسامع السياسيين مرة بعد أُخرى أنه لا يوجد حل عسكري للمشكلة مع الفلسطينيين، وعندما يواجه شارون حالياً كل هذه المتاعب في البقاء على رأس الحكم على الرغم من شعبيته الحالية، فإن هذا كله ليس علامات قوة سياسية عظيمة، وليس علامات صحة. أنا لا أقول إن إسرائيل ضعيفة، حتى سياسياً، ولا أقول إنها ستنهار بين عشية وضحاها، ولست جزءاً من الثقافة السياسية التفاؤلية الضحلة التي تحدث عنها جوزيف، لكن يجب ألاّ نعتقد أن المشروع الصهيوني ماض قدماً من دون مشكلات وأزمات، أو أن الشعب الفلسطيني لا قبل له بمقاومته. يجب أن نحذر في تحليلنا لتاريخ الصراع الفلسطيني/العربي – الصهيوني (أو أي تاريخ) من الصيغ الاختزالية أو التصور أن مسار هذا الطرف أو ذاك يمضي في اتجاه واحد نحو النصر أو الهزيمة. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf